عند مفترق الطرق

إن هذا العرض، حسب ما كنت أتصور في البداية، ورغم القالب التاريخي الذي أفرغته فيه، كان يسعى في المقام الأول إلى تحقيق غاية إبستمولوجية معينة تتلخص في استجلاء منطق «علم الجغرافيا» ورصد الأحداث الفاعلة فيه بغية التعرف على مقوماته وفهم قضاياه الراهنة. لكن درس الابستمولوجيا كان أفيد من ذلك بكثير حيث بدا من غير الممكن التعرض لعلم بعينه أو معرفة خاصة في معزل عن باقي العلوم والمعارف الأخرى، ودون ربط هذه كلها بجذورها الحقيقية.

وعندما تنتشر دائرة الضوء ويتوسع الأفق وتنكشف الساحة العلمية، أفقيا وعموديا، فإن حجم المشكلات الخاصة يتضاءل بسرعة ليذوب في قضية كبرى تشمل العلم برمته وتمثل فيه حجر الزاوية ومنطلق كل تأمل تقويمي، علما وعملا.

ولما كانت العلوم التي نزاولها اليوم، خاصة الإنسانية منها، ثماراً للفكر الغربي الذي ما انفك يسود الدنيا لقرابة ثلاثة قرون أو يزيد، رغم ما يعتريه من علل وانحرافات، فإنني، خلافا للمحاولات الابستمولوجية، الراهنة، خصوصا منها تلك التي يقدم عليها بعض الجغرافيين الغربيين أو المتغربين، والتي تكاد تقتصر اهتماماتها، بسبب قناعاتها العلمانية وتأسيا برواد الابستمولوجيا المعاصرة، على قضيتي الموضوع والمنهاج، هاملة البعد الفلسفي للقضية؛ إذن خلافا لهذا، أرى من الضروري تعميق التأمل في العلاقة الجدلية القائمة بين أطراف «المعادلة الابستمولوجية» الثلاثة : الموضوع والمنهاج والإشكالية.

ولست أستبعد أن يكون هذا الخلل أحد الأسباب الرئيسية، حتى الآن، في فشل بناء جغرافيا متماسكة. وإنني بقدر ما أوافق على العناية بمسألة الموضوع التي يجب أن تصبح بالفعل الشغل الشاغل لكل جغرافي، بقدر ما أتخوف من الاستمرار في تجاهل البعد الفلسفي الذي سيظل، أحببنا أم كرهنا، يمثل عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه بتاتا، ما دام هو المنبع الأصلي لكل تفكير والمرجع الأول لكل تطبيق.

وهذا ما جعل الجغرافيا مدة قرن بكامله، أي منذ تأسيسها كعلم عصري إلى اندلاع الثورة المنهجية، مادة فارغة تعيش كالشجرة العقيمة، تورق ولا تزهر. والسبب في ذلك أنها اختارت أن تكون علما طبيعيا سرعان ما أصدر الحكم بالنفي على الفلسفة باسم الفلاسفة والوضعية «المقدسة» !. وبما أن الجغرافيا كانت آنذاك تضطلع بمهمة الاكتشاف وتقوم بدور إخباري هام، لم يشعر الجغرافيون بقضية الموضوع، بينما اهتموا أساسا بالمنهج الذي أخذوه عن الطبيعيات. ولعل جغرافيي الغرب خلال تلك الفترة الطويلة لهم بعض الأعذار في عدم التنبه لما نسميه نحن اليوم بالقضية الإبستمولوجية، وهي قضية يمكن إجمالها في ظروف المحيط العلمي والتطور البطيء للمجتمعات بالمقارنة مع التسارع الذي سيشهده العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية في شتى مناحي الحياة.

ورغم التطورات الجذرية التي طرأت على كل المجتمعات البشرية، والتي أخذت تفرز عددا من المشاكل الإجتماعية والإنسانية المعقدة، ظهر جيل جديد من الجغرافيين، تدفعه النية الحسنة وتحركه الغيرة على المادة، استقدموا أسلحة من الخارج ثم نادوا بالثورة، لكن دون أن تكون لهم عقيدة معلنة أو برنامج عمل واضح. ومعنى ذلك أن ما أصبح يعرف في تاريخ الجغرافيا بالثورة المنهجية، أو تجاوزا بالجغرافيا الجديدة، هو في الحقيقة استمرار للفكر السابق لأن «الاصلاحيين» كـ «التقليديين» يهتمون هم أيضا بالمنهج ويسهون عن الموضوع ويضربون الصفح تماما عن الفلسفة والأيديولوجيا. والدليل على ذلك ردود الفعل السريعة والعنيفة التي أعقبت الثورة مباشرة.

ولعل هذا التحول الذي برز في الستينات ثم تجلى في العقد الموالي حدث بارز يجعل من هذه الفترة منعطفا حاسما بالنسبة للجغرافيا، إذ فيه اكتملت عناصر المعادلة : اهتمام متزايد بالموضوع ورد الاعتبار للفلسفة والأيديولوجيا مع الاستمرار في تطوير المنهج ووسائل البحث. هذا في الوقت الذي أصبح فيه المجتمع والانسان يحتلان الصدارة في هموم واهتمامات وبحوث الجغرافيين قاطبة، وحتى «الطبيعيين» منهم الذين وجدوا في موضوع البيئة الطبيعية وسيلة لإنعاش الجغرافيا الطبيعية بعد أن فقدت صولتها.

لكن لما استجابت الجغرافيا للطلبات الجديدة والملحة وأصبحت تواجه سيلا عارما من المشكلات المعقدة، وجد الجغرافيون أنفسهم خاويي الوفاض، صفر الأيدي. فلم يجدوا مخرجا لمأزقهم هذا سوى الاستغاثة بالعلوم الإجتماعية والإنسانية التي لها بعض التجربة في الموضوع. وهكذا فمنهم من استنجد بالاقتصاد ومنهم من استعان بالسّكانة (الديمغرافيا) ومنهم من اعتنق علم الاجتماع ومنهم من استهواه علم النفس... الخ. وليت المسألة وقفت عند هذا الحد، بل زاد الطين بلة بفعل التأثيرات الأيديولوجية المتضاربة. فلا غرابة إذن أن تتشتت الجغرافيا إلى تيارات مختلفة نلخصها في الجدول الموالي.

أهم اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر

الاتجاه	الموضوع	الاشكالية	المنهج	النموذج	التاريخ	الطرح	المرجع الفلسفي	النزعة
الجغرافيا الوصفية	الأشكال الوظيفية	• الإقليم • البيئة والإنسان • «المشهد»	أحادي	الطبيعات	1900/ 50—1930	ليبرالي	المذهب التطوري	الطبيعية
الجغرافيا النظرية	تنظيم المكان	؟	تعميمي	الاقتصاد	1930—50		الوضعية الجديدة	
الجغرافيا الراديكالية	التشكيلات «السوسيو مكانية»	النظرية الماركسية	جدلي	الاجتماع	1970 ~	بنيوي	الظاهريات الوجودية الأمثلية	البشرية
الجغرافيا السلوكية	• المكان المعيش • المكان الذهني			علم النفس	1970 ~	إنسي		

لكن علي أن أبادر لأقول بأن هذا التقسيم لا أعني به تصنيفا محكما – على افتراض إمكانية ذلك في فترة مخاض – بقدر ما أهدف من ورائه إلى التأكيد على تذبذب الفكر الجغرافي في المعاصر واضطرابه. وهذه الاتجاهات التي ليست في الحقيقة سوى انعكاس لما تعرفه علوم أخرى، ينقسم في النهاية إلى نزعتين : نزعة طبيعية تنتهي إلى الماديات ونزعة بشرية تجعل العقل فوق كل شيء؛ وكلتاهما تؤلهان الإنسان.

وبالنظر إلى هذه الاستنتاجات العامة حول الفكر الجغرافي المعاصر فإن مشروع الإصلاح أو التصحيح لا شك أنه سيكون مثار جدل ساخن سببه الرئيسي اختلاف العقائد. وللخروج من هذا المأزق فلا أرى سوى بناء «جغرافيات جهوية» يوحدها الموضوع والمنهاج وتميزها الاشكاليات كي يتعامل كل مجتمع وكل فرد مع الكون وفق عقيدته. ولتثبت التجربة، بعد ذلك، الحقيقة !.

والحمد لله رب العالمين

محتويات الكتاب

توطئة : إلى أين تذهب الجغرافيا ؟ 9

1 – بين الحجود والتذمر 10
1.1 – «اللقيطة المنكرة»، 10
2.1 – الجغرافيا بصيغة الجمع، 11
1.2.1 – الجغرافيا في المعاجم العلمية، 12
2.2.1 – جغرافيات أهل الاختصاص، 13

2 – العلم المستحيل ؟ 18
1.2 – ما هو الموضوع ؟، 19
2.2 – تفكير أبتر، 23

3 – كلنا في الهم سواء 24
1.3 – ساعة بين العلوم، 24
2.3 – الفلسفة تحاور العلوم، 28
1.2.3 – «من نظرية المعرفة إلى الإبستمولوجيا»، 29
2.2.3 – من الإبستمولوجيا إلى «فقه المعرفة»، 32

4 – نحو مشروع جغرافي أصيل 36
1.4 – تاريخ الفكر الجغرافي كمدخل لإبستمولوجيا الجغرافيا، 37
2.4 – المشروع الجغرافي : طموح مشروع، 39

الفصل الأول : التأسيس والطموحات العلموية 47

1 – اللبنات الأولى، 49
1.1 – محيط علمي منشط، 49
2.1 – الحدث السياسي هل يفرز البذرة، 50

3.1 – زمان الأنوار، غياب المكان، 52
4.1 – لقاح الفلسفة الألمانية، 54
1.4.1 – الأب الروحي للجغرافيا العصرية : كَنْط أم هِرْدَر ؟، 55
2.4.1 – هَمْبُلت وريتَر : البحث عن مفاتيح الحضارة، 56
5.1 – من يحمل المشعل ؟، 62

2 – البناء الهش، 66
1.2 – في خدمة القومية والاستعمار، 66
2.2 – الجغرافيا الأكاديمية، 70
1.2.2 – في ظلال الفلسفة الألمانية، 70
2.2.2 – على درب العلوم الطبيعية : الجغرافيا علم العلاقات بين الإنسان والبيئة، 71
1.2.2.2 – راتزِل، البيئة ومسألة الحتمية، 73
2.2.2.2 – الجغرافيا الاحتمالية، 76
3.2.2.2 – الجغرافيا علم المشاهد، 77
3.2 – جغرافيات القرن التاسع عشر، 78
1.3.2 – الجغرافيا الغائية، 78
2.3.2 – الجغرافيا البيئية، 79
3.3.2 – الجغرافيا المشهدية، 80

الفصل الثاني : ازدهار المدارس 85

1 – الجغرافيا لا تفهم التاريخ، 86
1.1 – الانصراف عن الجغرافيا، 86
2.1 – الجغرافيا والتيارات الفلسفية، 87
3.1 – الجغرافيا والحركة العلمية، 89
1.3.1 – نهضة العلوم الاجتماعية، 89
2.3.1 – حملة على المذهب التطوري، 90

1.2.3.1 – النزعة الثقافية في الجغرافيا، 91
2.2.3.1 – الجغرافيا والنزعة الوظيفية، 93

2 – المدارس المبدعة، 95

1.2 – المدرسة الفرنسية : العصر الذهبي، 95
1.1.2 – الوضع الأكاديمي للجغرافيا، 96
2.1.2 – الخصائص الكبرى للمدرسة الفرنسية، 98
1.2.1.2 – الكثافات البشرية منطلق البحث الجغرافي، 98
2.2.1.2 – نمط الحياة ومسألة المواصلات : محور الدراسة الجغرافية، 100
3.2.1.2 – اللوحة الإقليمية : سنم الجغرافيا الفرنسية، 102
3.1.2 – كبوة الجواد، 106
4.1.2 – مدرسة متنوعة، 107
2.2 – المدرسة الألمانية : البعد الحضاري في الجغرافيا، 109
1.2.2 – نشأة مضطربة في ظروف حساسة، 109
1.1.2.2 – سنوات عجاف، 109
2.1.2.2 – عودة الروح، 110
3.1.2.2 – حركة التجديد، 111
2.2.2 – «اللاندشفت» جوهر المدرسة الألمانية، 113
1.2.2.2 – دلالات «المشهد»، 113
2.2.2.2 – معالجة الموضوع، 115
3.2.2.2 – غواية العنصرية، 116
3.2 – الجغرافيا الأمريكية، 118
1.3.2 – نشأة مبكرة ومسار طويل، 118
2.3.2 – رُواق «ميدَل وِست» : اهتمامات اقتصادية، 122
3.3.2 – رُواق بِركْلي : الجغرافيا الحضارية، 123

3 – المدارس المقلدة، 126

1.3 – تياران رئيسيان، 126
1.1.3 – الجغرافيا البريطانية، 127
2.1.3 – من الجغرافيا الروسية إلى الجغرافيا السفياتية، 133
2.3 – لمحة عن التيارات الثانوية، 137
1.2.3 – باقي أقطار أوروبا الشمالية والشرقية : نزعة ألمانية.
2.2.3 – العالم اللاتيني : ميولات فرنسية، 138
3.2.3 – العالم الأسيوي : التبعية للغرب، 138

الفصل الثالث : من الكبوة إلى الثورة : «الجغرافيا الجديدة» 147

1 – أعراض «الأزمة» وعلامات التغيير، 147
1.1 – على أعتاب عالم جديد، 147
1.1.1 – المدارس الجغرافية كيانات ايلة إلى الانهيار، 147
2.1.1 – مستجدات تحث على التطوير، 148
3.1.1 – انفتاح الجغرافيا وتواصل الباحثين، 149
2.1 – البعد الاجتماعي في الجغرافيا، 150
1.2.1 – بين النزعة التاريخية والنهج الإقليمي، 150
2.2.1 – اجتهادات في التأصيل، 151
3.2.1 – محاولات التطوير، 152

2 – الجغرافيا في محيطها العلمي الجديد، 153

1.2 – غياب عن النقاش الفلسفي، 153
2.2 – الاقتصاد يلقح الجغرافيا، 155
1.2.2 – بوادر الاقتصاد الجغرافي، 155
2.2.2 – «علم الأقاليم» يحفز البحث الجغرافي، 156

3.2 ـ تجديد العلوم الاجتماعية ونزعة نحو التنظير، 157
1.3.2 ـ ظروف الحرب تطور العلوم الاجتماعية، 157
2.3.2 ـ الآمال العريضة، 158
3.3.2 ـ البلدان الأنجلوسكسونية تتزعم القافلة، 158

3 ـ ملامح الجغرافيا الجديدة، 159

1.3 ـ التباشير، 159
2.3 ـ اعتناء بالمنهج واستعارة للنماذج الاقتصادية، 160
3.3 ـ بين التكميم والتنظير : الجغرافيا «التغميمية»، 162
4.3 ـ الجغرافيا بين المذهب السلوكي والتوجة الاجتماعي، 166
1.4.3 ـ النزعة السلوكية، 166
2.4.3 ـ علامات المنحى الاجتماعي، 167

الفصل الرابع : المخاض العسير 71

1 ـ مدنية الغرب والحقائق المرة، 172
1.1 ـ مشكل البيئة الطبيعية، 172
2.1 ـ مسألة العدالة الإجتماعية، 173
3.1 ـ أزمة الطاقة والخوف من المستقبل، 174
4.1 ـ احتدام التباين العالمي، 175

2 ـ طروحات جديدة في فلسفة العلوم، 176

1.2 ـ «مدرسة فرنكفورت» والانتقادات الأولى، 176
2.2 ـ الحركة النقدية بالولايات المتحدة، 177
3.2 ـ محاسبة الكميين، 178
4.2 ـ تجاوز السلوكية ومفارقة الوضعية، 178
5.2 ـ بديل الماركسية، 180

6.2 ـ تـأثيـرات جـانبيـة، 180
3 ـ الجغرافيا في السبعينات : في مهب الرياح الفكرية، 181
1.3 ـ بين الماركسية والتـصورات الإنسـية، 182
1.1.3 ـ التيار الراديـكالي، 182
2.1.3 ـ النزعات الظاهرياتية، 183
3.1.3 ـ التعقيد بدل التقعيد، 185
2.3 ـ العمل الجغرافي : تعدد الاهتمامات، 186
1.2.3 ـ تجديد الصلة بموضوع البيئـة، 186
2.2.3 ـ استـثمار الوسائل الكميـة، 187
3.2.3 ـ مساهمات في التـنظيـر، 188
1.3.2.3 ـ في القـضايا الاقتصاديـة، 188
2.3.2.3 ـ في السياسة والاجتماع، 189
4 ـ نحـو مشروع جغرافي جديد ؟، 191
1.4 ـ تعاقب «الثورات» وتراكم الـنظريات، 192
1.1.4 ـ تصنيف هابِرماص للعلوم، 192
2.1.4 ـ الجغرافيا في فلك النظرية النقدية، 194
2.4 ـ الجغرافيا الحديثة علم اجتماعي، 195
1.2.4 ـ الأطوار الكبرى للجغرافيا، 195
2.2.4 ـ استكمال المعادلة ؟، 197
خـلاصـة : عند مفترق الـطرق 201